كلام الشهود

يا له من هيكل ضخم،
ويا له من محرك صغير
عن حقيقة مؤلمة

هيرتا موللر

على الجدارِ صور كثيرة لدرجة لا يمكن منها رؤية الجدار، إحدى الصور كانت للأب وهو عروس، كان يبدو منه نصف صدره فقط، أما النصف الآخر فقد كان طاقة من الأزهار البيضاء المتغضنة تَحْمِلُها الأمُ في يَدِها. كانَ رَأْسُاهما مُتقارِبَين حتى أنَّ أُذُنَيْهِما كانتا مُتَلاصِقَتَيْن.

في صورة أخرى كان الأب يَقِفُ مُنْتَصِباً مثل شمعة أمام سياج، وتحت حذائه الطويل ثلج. كان الثلج من البياض ما جَعَلَ الأب يبدو وكأنه يقف في الفراغ. كانت يده مرفوعة. كانت مرفوعة إلى رأسه بالتحية. وعلى ياقتِه كانت كتابة جرمانية قديمة. في صورة أخرى كان الأبُ يجلس خلفَ مقود شاحنة. كانت الشاحنةُ محملةً بالعجولِ، التي ينقلها كل أسبوع إلى المسلخ في المدينة.

الواقعُ المعيش يتلاشى مع الزمنِ ويظهر ثانيةً في الأدب، بيْدَ أني لم أكتبْ مرةً عن هذا المعيش إلاّ بطريقة غير مباشرة فقط. وفي ذلك كان عليَّ أن أختبر دائماً فيما إذا كان يمكن للأحداث الحقيقية أن تتخيلَ المختلقَ اللاحقيقي.

هيرتا موللر، روائية رومانية تكتب باللغة الألمانية، حازت على جائزة نوبل في الآداب العام ٢٠٠٩

بعد موت أبي بَدأْتُ الكتابة. ولكن ليس بعد الموت الناجز، وإنما بعدَ مُعايشة مرض قصير من ناحية زمنية، ولكن لا أملَ فيه ولا يرحم. وبعدَ أن افترسَ هذا المرضُ الجسدَ، وحينَ غدا الرأسُ ضئيلاً كأنَّه لطائر، والأنفُ كبيرًا كأنَّه منقار، والعنقُ نحيلاً كأنَّه شمعة ـ كان يستلقي في الفراش الشخصُ نفسه دائمًا ولكنه كان ـ في الوقت نفسه ـ النقيض، لأنَّ الحيَّ منه كانَ قد غادرَ الجسدَ، وصارَ يحلِّقُ خارجًا في هواء فبراير.

حالما تركْتُ المتوفى مسجًى في المستشفى أَخَذَ الثلجُ يهطل على الشوارع في ندفات يمكن القول إنَّها كانت في حجم مناديل الجيب. هذا الثلج بعثَ التقززَ في نفسي. بدا لي مُدوِخاً بهذه الندفات الشبيهة بمناديل الجيب، كُنْتُ أنظرُ فقط إلى الأرض، إلى حذائي في أثناء المشي، أمشي بدون قدمين وكأنَّ لعينيَّ أحذية. بدا لي واضحاً في الثلج المحوّم أنَّ يوم الموت هذا يطوّحُ بطفولتي مع ندفاته.

كان مرعباً حقًا إلاّ أنَّه لم يكن غيرَ طبيعيّ، كان شيئاً واضحًا ويمكنُ للمرءِ أن يرى بصحوٍ تام: لقد أنجزَ الطقسُ هذه المبالغةَ لنفسه. هكذا بدا كل شيء جديداً جدًا حالما انتهَت حياةُ والدي ـ فقد شرعْتُ بعد بضعة أيام في الكتابة على الرغّم من أنني لم أع ذلك، ولم يكن الأدب في قصدي إطلاقاً.

ولأنَّ الكتابةَ دخلت بهذا الشكل فقد بدأَتْ منذ البداية، ثمَّ فيما بعد، دائماً بالكتابة عن والدي: فقد انعكَسَتْ حياتُه حينما كان على قيد الحياة على نحوٍ دائم في حياتي ، كانَ الأمرُ متعلقاً بمعرفتي أنَّه يتوجبُ عليَّ أن أحبَّه، على الرغم من أنني لم أستطع ـ وفي الوقت نفسه عرفْتُ أنني أحبُّه على الرغم من أنّني لم أكنَ أريد .

هذه المعضلة ترتبط بقائد الفصيل في سلاح الإس إس. كانَ أغلب أفراد الأقليّة الألمانية في بانات، وكذلك في زيبنبورغن من أنصارِ هتلر. ومنهم أبي، أيضًا، الذي لم يكن أبي في ذلك الوقت، فقد تطوَّع سنة ١٩٤٣ وهو في سن السابعة عشرة في سلاح الإس إس. ومن المحتمل أنَّه كان جندياً كفؤاً، فقد صارَ قائد فصيل، كان ذلك ما قاله. لم يُرد ذكر الحرب في جملةٍ واحدة؛ فبعد الاستهلال تأتي مباشرة نهاية الحرب عنده. لم ينقش بالوشمِ فصيلة الدم على ذراعه. واستطاع أن يتخلص من

بزةِ الإس إس وينتحل صفة جنديٍّ في الفيرماخت، وقعَ في أسر الجيشِ الإنجليزيّ.

وقد سردَ ذلك بعد عشرين عاماً، وفي صوتِه كبرياء مخادعة. وأكثر من ذلك لم يعرف أحدٌ شيئاً. كان حتى في سنوات السبعينيات يُنشِدُ في القريةِ أغاني نازية مع «رفاق السلاح». ولكن من الخطر أن تسأل بعد الحرب. كان مُدمناً على الكحولِ ويقعُ بسهولة في نوبات غضب. لقد كان إذاً، سائقَ شاحنة، ومدمن كحول، وهما أمران ينسجمان معاً. كان مُندفعاً يبحثُ دائماً عن المخاطر. بَحْثٌ أنيقٌ مقترنٌ بلغة مستفزة، ونكات خشنة. كان محتاجًا إلى الخطر والشطط.

حينما كنْتُ في المدينة بعد أن غادرْت المستشفى، وحين لم أكن أعرف إلى أين أمضي مع الموت في الرأس، ومع ندفاتِ الثلج البيضاء، التي تُشبه مناديل الجيب، تذكرْتُ ما يلي: الأب يجلس أمامي على الكرسيّ، وبدنَه يهتزُّ في أثناء جلوسِه وكأنَّه على الماء. كان قد شَرِبَ، كان ثملاً إلى درجة لم يستطع معها لبسَ الحذاء. ولكنَّه قال: يجب أن ننطلق من هنا قبل أن يحلَّ الليل. ركعْتُ على الأرض وأدخلْتُ قدميه في الحذاء، وعقدْتُ الرباط.

نهض مترنحاً باتجاه السيارة وصعَد إلى حجرة السائق ثمَّ جلسْتُ إلى جانبِه وانطلقْنا. كنَّا في الجبال نسيرُ على حافةٍ صخريةٍ ضيقةٍ في السماء، على جانبِ دربٍ صخريّ على الجرف. استغرَقَتْ هذه الرحلة خمسَ ساعاتٍ على الأقل، حتى انحدرَ الطريقُ من السماء نحو الأرض، حتى بدأَ السهلُ حيث لا يمكن التدهور على الأقل. كنّا نسافرُ غالباً على هذا الدرب فوق الجبال؛ خمس مراتٍ كل سنة. كان ينقلُ كلَّ بضعة أسابيع طوال الصيف الخضراوات إلى تعاونية المنتوجات الزراعية في الجبال.

كنَّا نعود بعدَ يومين بعد أنْ يُباع كلَّ شيء. لم أكنْ أشعرُ بالخوف حينما كان يقود على حافة الجرف. فقد كان يجب أن يكون الأمر كذلك، لأنه كان كذلك. كان هو أبي، وأنا ابنته وكنتُ أثق به. كنتُ أفكر أنه لو حدثَ شيءٌ ما فذلك يعني أنَّ الغابةَ المعتمة والجبال الصخرية البيضاء تعاقبنا، إذا وقعَ حدثٌ فإنَّ الذنبَ في ذلك يكون على البيئة المحيطة بنا. ولكن لم يحدث أيّ شيءٍ قط.

في بعضِ الأحيان يقفُ على الدرب المهجورِ شخصٌ ما ويُلوّح. رجلٌ أو امرأةٌ مع

حقيبة ظهرٍ ثقيلة، أو سلة يريد السفرَ مسافة على السفح الصاعد المهجور، حتى الجبل التالي أو المكان التالي، أو ما بعد التالي، الذي كان بعيداً. ولكن حين تتوقف السيارة ويترجل أبي ويساوم الراكبَ على الأجرةِ ويفتحُ بابَ الصندوق لكي يصعد الراكب ، يشتم الغرباءُ رائحةَ نفسِه ويسمعون كيفَ يثرثر، ويرون كيف يترنّح ـ كانوا يهزّون رؤوسَهم ويفضلونَ المضيَّ سيراً على الأقدام. هؤلاء الأغبياء، كنْت أفكر. لن يقعَ لهم بالذات أي شيء، فهذه البقعة بالذات لن تعاقبهم لأنّهم هنا في موطنِهم في هذه الأراضي الوعرة.

« إنَّه قادرٌ فقط على السفرِ مبتعداً عن نفسِه » كان جدي يقول، وكانَ يعني بذلك أيضًا الإفراط في الشرب. في إحدى المرات كانت شاحنته تقف في باحة البيت لأنّها كانَت قد تعطّلَت وكانَ أبي يحاولُ إصلاحَها. جاءَ الجارُ ودارَ حول السيارةِ ثم قال: « يا له من هيكلٍ ضخم، ويا له من محرِّكٍ صغير ».

مثل هذه الجملةِ تتضمنُ شيئًا في ذاتِها يجعلُها تثبتُ فورًا في الرأس. لأنّها ذات وقعٍ انفصامي بجهالة. وفي الوقت نفسه فإنها طريفةٌ بدون قصد. وكونُها بهذه الازدواجيةِ فإنّها ملائمةٌ لأشياءَ كثيرةٍ ؛ تجتمع فيها أمورٌ كثيرةٌ: فهذه الجملة هي مثلٌ في حدِّ ذاتِها. والمرءُ يفكّر فيها في أوضاع كثيرةٍ بصفتِها تعليقًا متجولاً عما يحدث، وبدون أيِّ سبب تمامًا ـ مثل مفاجأة. ثمَّ إن المرءَ لا يشعرُ بأنها تصلحُ فقط بل إنها أيضًا قادرة على تلخيص الموقف برمته. المجريات كلها تتوجه فورًا نحو هذه الجملة، فهي تمثل الحدث فجأة بوصفه ذروة.

بعد أن ماتَ والدي كنْتُ أراهُ باستمرار جالسًا في شاحنتِه يجرّه سائقٌ آخرَ في شوارع المدينةِ، وكنْتُ أفكّر: « يا له من هيكلٍ ضخم ويا له من محرِّكٍ صغير » ولم أعد أعني بذلكَ الشاحنة وإنما الموت. لقد رأيْتُ الهيكلَ الضخمَ، والمحرّكَ الصغيرَ. حينَ كنْتُ أقف لنصف ساعة أو حتى لساعةٍ كاملة في طابورِ الخبزِ، وأرى الصراصيرَ على الرفوفِ، وكيفَ كانَت تزحفُ بجمالٍ وأناقةٍ مقارنةً مع الناسِ، وكيف كانوا مشلولين، وخجلين، وهم يُبْرزون بطاقاتِهم للبائعةِ قبَل أن يحصلوا على الخبز.

وفي الهيكلِ الضخم والمحركِ الصغيرِ كنْتُ أفكرُ أيضًا، وأنا في السوق، حينما

كان بائع البطيخ يحلق ذقنه خلف كومةِ البطيخ لأنَّ لا زبائنَ عندَه في ذلكَ الوقت. كنْتُ أرى كيفَ يقشِطُ الرغوةَ البيضاءَ بموسى الحلاقة، الذي يطوى، وهو ينظرُ في نصف البطيخة حيثَ ثبّت المرآة عميقًا في اللُّب الأحمر كي لا تسقط.

وحين يتناهى إلى سمعي أنَّ أحدَهم يتمنى لآخرَ أمنيةً طيبةً باللغة الرومانية، حين يقال: «فليكن الحظ نصيبك» وحينما أستعجب من أنَّ للحذاءِ لساناً، وللتفاحةِ غلافاً، وسقْفُ الحلقِ له مزمارٌ، والأذنُ لها طبلةٌ، والركبةُ لها صابونةٌ، والنوارةُ لها تويج. أي عندما أصاب بمحتوى الكلمات من خلال أسماء الأشياء، أي حينَ تتبادل الوقاحة العونَ مع النقائض الحية والميتة، لأنَّ للأشياءِ خصائصها، ولنا نحن أعينًا في رؤوسِنا، أي لأنه يتوجبُ علينا أن نَصف شيئاً ما.

أو حين أقفُ في حجرة الاغتسال في المصنع، وأصغي طويلاً ومع ذلك لا أعرفُ بعد فيما إذا كانَت سائقةُ الرافعةِ التي تقف إلى جانبي تحت المرش تغني أم تبكي، وعندما سألتها في النهاية، وأجابَت بشكل بدهي: إنني أفعلُ الأمرين. أو حينما أضعُ تبرجّي لأن المباحثَ السريةَ استدعتني، ولا أعرفُ كيف أو هل سأعود من هناك على الإطلاق.

أو حينما تقفلُ عليَّ المباحثُ السريةُ مكتبَ المصنع، وحينَ يتوجبُ عليّ أن أكون متنبهةً طوال ساعاتٍ كاملة متى وعلى أي جزءٍ أجيب، أو يُفضّل الحفاظ على الصمت، حينَ يدقُ القلبُ سريعًا هكذا لدرجة أنّه يمكنُ أن يقفز إلى الفم، ولكنَّ اللسانَ حينئذٍ يكون من الثقل بحيث يسقطُ عبرَ الفم إلى خلف القلب.

حين لا أعود أرى معنى للحياة، وأتمنى لو كنْت مَيتةً فأفكرُ في الانتحار، ثمَّ لا أقوى على قتل نفسي، ولكنَّ المحقق يهدد بالقتل، ويريدني أن أموت. وحين أظلُّ معلقةً بالحياةِ على الرَّغم من كل السأم، ولا أنجز عملَ النظام القذر في نفسي، أي أنني في كلِّ وضعٍ من هذه الأوضاع كنْتُ كأنني أرى من ثقب مفتاح كيف كانت هذه الجملة تشع: «يا له من هيكلٍ ضخم ويا له من محرِّكٍ صغير».

كانَت الجملة تحضر حتى تكونَ هناك بقعة عارية. كانَتْ تُهَدِئني لأنَّها تَقرعُ على نحوٍ مُقتَضب مُنذِرةً بالخطر. لم تعدْ منذُ زمنٍ بعيد تتعلق بالشاحنة. أمَّا ماذا تعني

فإنني لا أعرفُ على وجه التحديد، ولا أريدُ أيضًا أن أعرف: لم يكنْ في هذه الجملة أيّ معنى ناجز. ولا جدوى وظيفية، ولا تتضمنُ معنى ساميًا.

أحيانًا لا تصدِّقُ هذه الجملةُ هي نفسَها ما تقولُه، وأحيانًا لا تقول ما تؤمنُ به: أشياء كثيرة وحقيقة صغيرة. ويبدو لي أنَّ مثل هذه العلاقة توجد كثيراً بين الأشياء. أجل، كون أبي قد تطوَّعَ وهو في السابعة عشرة في سلاح الإس إس كان بمثابة تحذيرٍ لي في عمر السابعةَ عشرةَ. كُنْتُ أعتقد أنَّ الإنسان يكونَ مكتمل الفَهْم في السابعة عشرة، يكونُ ناضجاً. كثيرون كانَتْ لهم وظائف في هذا السنِّ، وكانوا متزوجين. بل كان لهم أطفال.

الإنسان ينضج باستمرار، ومن جديد، في أثناء الحياة. وفي سنِّ السابعةَ عشرةَ فإنَّ الإنسان على الأقل راشدٌ للمرة الأولى، هذا إذا لم يكن كذلك للمرة الثانية أو الخامسة، ففي سنِّ السابعة عشرة يكون المرءُ قد تدرَّبَ ألفَ مرةٍ على التمييز بين الصالح والطالح. كلُّ طفلٍ يعرف: أنَّ المرءَ لا يقولُ إطلاقاً بشكلٍ علنيٍّ ما يفكرُ فيه، أو ماذا يريد، وأنَّ خارجَ باب المنزل تنقسم الحياةُ إلى قسمين: هناك ما لا يجوز لأنَّه ممنوع. وهناك ما يتوجبُ فعلُه لأنَّ المرءَ مجبرٌ عليه.

والمرءُ يشعر بالانقباض باعتباره مزاجا أساسيا في الحياة اليومية. ويدرك دون أن يضَّطرَ أحدُهم لأن يشرحَ له ذلك نظريًا: نحن نعيش في ديكتاتورية. كان الوضع واضحًا ولا يتوجب على أحدٍ أن يستخدم مفردة الديكتاتورية، فالمرءُ لا يعرفُها بتاتًا. إنَّه يعرفُ كلمات الحزب، والبوليس، وهما تحكمان خوفَنا، وكلاهُما كان شريرًا وليس طيبًا. ذلك ما يعرفُه الإنسان وهو طفل، فهوَ يُحسُّ بذلك من خلال المسام والجلد. ويعرف أنَّ هناكَ ما هو نافعٌ وما هو ضار لأسباب سياسية. وهذا لا يحتاج إلى شرح نظري عن ماهية الأسباب السياسية.

في إحدى المرات كان عليَّ أن أُلقي، على المسرح، قصيدةً حزبيةً في احتفالٍ مدرسيّ. تدرَبْتُ على حفظِ القصيدةِ غيبًا طوالَ أسابيع، ولكن حين وقفْتُ على المسرح تَمَلَّكَني خوفٌ شديدٌ لدرجة أنني وقفت جامدة. وهذا يعني أنني أُلحق العارَ بالمدرسة والحزب والقرية بأسرِها، بل ربما بالوطن أيضًا.

ومن الخوف تبخرَتْ القصيدةُ من رأسي، وكأنَّها قد مُحيَتْ. كُنْتُ أرتجف. مشيْت على المسرح وأنا أحرِّكُ الزرَّ الأسفلَ في السترة. تماسَكْتُ ولم أترك الزرَّ من يدي قط. وبدلاً من القصيدة التي عُنوانُها «الحزب»، ألقيْتُ من اليأس «السنونو» ودفعةً واحدة، وكأني قد تحولْت إلى شخصٍ آخر، وأنا أحرِّكُ زِرَ السترة وأُديرُه كأنني ممغنطة.

ألقيْتُ قصيدةَ السنونو بجميع مقاطعِها، وبدونِ أيِّ غلطة. تحريكُ الزرِ حماني. وفي ذروة الخوف تحطَّمَ الخوفُ وانكسَر. شعرْتُ أنني لم أعدْ ملتزمة بأيِّ شيء واستبدلْتُ القصيدةَ. لقد أدى تحريكُ الزر هذا وظيفةَ المسنّنةِ في الآلةِ. ومن خلال زر السترة كنْتُ أديرُ رأسي بأصابعي: يا له من هيكلٍ ضخم ويا له من محرِّكٍ صغير بالمعنى المزدَوَج ـ أي بمعنى تدوير الزر وأنا. ولكن أيضًا بمعنى الفارقِ الجسيم بين القصيدتين: يا لها قصيدة الحزب من هيكلٍ ضخم، ويا لها قصيدة السنونو من محرِّكٍ خفيف.

ولكن بعدَ القصيدة رجَع الخوفُ كلُّه من جديد ؛ فقد عرفْتُ أنَّ للأمرِ عواقبَه. أضف إلى ذلك أنَّ الوقتَ لم يكن مناسبًا للسنونو على الإطلاقِ ـ ٣٠ ديسمبر. يوم الجمهورية. تلقيْتُ عُقوبَتي من إدارةِ المدرسة: حبسٌ في البيت لمدة أسبوعين. وهذا يعني أنَّه لا يحق لي مغادرة المنزل طوال العطلة الشتوية. وقد كانَ الجارُ هوَ الجار نفسَه الذي قالَ عن شاحنةِ أبي: يا له من هيكلٍ ضخم ويا له من محرِّكٍ صغير. باتَ الآن يتندّر على حبسي في البيت: «إذا كنْتَ بمثلِ هذا الغباء مع سنونواتك فقد كانَ بإمكانِكَ على الأقلِ أن تقولي فورًا: «السنونو حلَّقَ طائرًا من الحزب».

وكونُ السنونو أصاب الحزبَ، فقد انتشرَ ذلكَ في القريةِ. بعدَ بضع سنوات باتَ الأمُر أكثرَ جديَّة، فقد انتقلْتُ إلى المدينة. وفي المدينةِ كانَتْ الدولةُ في كلِّ مكان. ومَن كانَتْ خدمَتُه في الدولةِ العملَ على خوفِ الناس فإنَّه يحققُ لنفسه مستقبلاً مهنيًا. وكنْتُ الآن في السابعة عشرة، مثلَ أبي آنذاك. دائمًا خطرَ لي أنَّه ذهب إلى الإس إس في مثل عمري.

وكانَ عليَّ أن أقرِرَ أن لا أهدِف إلى أيِّ شيء في المدرسة الثانوية، لا أن أبدو

ذكية جدًا أو غبية جدًا، بل أعومُ في المنتصف. الإنسانُ يبحثُ لنفسه عن ناس، عن أصدقاء يناسبونَه ويناسبَهم. غيرَ أنَّ الميولَ لا تبقى عائمة، فالدولةُ تعرفُ سريعًا بها. أصدقائي الذينَ صرْتُ أحبّهم كانوا أيضًا في مثل عمري، وهم أيضًا معادونَ للدولة، وفي تقاطعٍ مع النظام. وحالما بدأْتُ أخالطُهم غدوْتُ أيضًا عدوًا. وكان ذلك مناسبًا لي. وكان عاديًا أيضًا. لأنَّ كلَّ شيءٍ كنْتُ أحبُّه أكثرَ في هؤلاء الأصدقاء كان ممنوعاً أكثرَ ويعاقَبُ عليه أكثر.

وقد ظهرَ ما عرفْتُه عن هؤلاء الأصدقاء: حينَ يكونُ المرءُ عدوًا فإنَّ الدولةَ شخصيًا تقِفُ على نحوٍ مقزز ضدَّه. يأتي الاستجوابُ ويريدُ المحققون أن يجعلوا مني جاسوسة. وردًا على هذه المباشرة من قِبَلِ المحقق كان عليَّ أيضًا أن أُجيب على نحوٍ مباشر: » لا أريدُ أن أكونَ مثلَك. «

بَيْدَ أنَّ هذا الرفض جاء من مشاركةِ أبي. في بدايةِ الأمرِ لم أكنْ أرغب في أن أكون مثلَه عندما كان في السابعة عشرة. لأنَّ المرءَ كان يرى طوالَ كلِّ تلكَ السنواتِ بعد ذلك أنَّ هذا الأمر لا يتوقف بتاتًا حين يختبئُ المرءُ. كيفَ يمكن للإنسان أن يُعاملَ نفسَه ويعاملَ غيرَه بسوءٍ شديد. حين يتوجبُ على الإنسان أن يكونَ فظًا. حين يعرفُ عن نفسه بعضَ الأشياء، ولكن لا يحقُّ لأيِّ شخصٍ آخرَ أن يعرفَ ما هوَ على الحقيقة. كنْتُ أراهُ مثلما هوَ كيفَ كان يواصل هكذا على نحوٍ غيرَ قابلٍ للتعلُّم بضميرٍ مثقَل. كنْتُ أحبُّه جدًا في صغري.

فيما بعدُ أقمْتُ مسافةً دائمًا إزاء حبِّه، كانَتْ تكبُرُ باستمرار من جديد، وأنا أعيدُ بناءَها. عرفْتُ في هذه الأثناء، من خلال حياتي اليومية، شيئًا عن الانكسار. عن الأعصاب التي تُسحبُ مثل خيط، عن المخاوف المميتة التي تجعلُ الدماغَ جامدًا هكذا في الرأس مثل شرفة بيضاء لا يستطيع المرءُ نفسُه احتمالَها في داخله.

أبي ميتٌ منذ ثلاثين عامًا، وما زلْتُ حتى الآن أشعرُ بالقلقِ على حياته، أو لنقل: على حياتي. وبالذات لأنني أعرفُ من خلال بضاعتي التافهة الخوفَ القاتل لأسبابٍ سياسيةٍ فإنني أتهمُه أنَّه كان في سلاح الإس إس وأنَّه قد لاحقَ الآخرينَ بالخوف القاتل. وكيفَ لي ألا أفعل، فهذا الاتهامُ هو أضعف الإيمان.

كانَ مؤمنًا بهتلر، وأَملَ أن يكسَبَ هتلرُ الحربَ على الرَّغم من أنَّه رأى الجريمة. إنَّه جزءٌ من هذا المعلم في ألمانيا الذي دفعَ تسيلان إلى صدع الموت. فأنا أقرأُ كتبًا، وينبغي عليَّ أن أسلُكَه في زمنه، وفي زمن حياة المؤلفين، وبذلك فإنَّه يكون متسببًا في خوف جورج سيبرون، وجورجيس ـ آرثر غولدشميدت، وجين آري، وأهرون آبلفيلد، وإرمي كيرتيس ـ وروت كلوغر، ولويس بيلغي، في خوف بريمو ليفي، وبول تسيلان، ووالتر هازن كليفر. لقد كان في السلاح، وكان يرتدي البزة العسكرية، التي كانَتْ تعني الموتَ للمذكورين أعلاه. ماذا كانَ بيدي سوى اتهامه بذلك.

كنْتُ خائفةً في عمر السابعة عشرة. وفي الخامسةِ والعشرين أيضًا. وكذلك في الثلاثين، أيضًا، ربّما أشعرُ بخوفٍ أشدّ لأنَّ الكثيرَ قد حدَث. إلاّ أنَّه لم يتبقَّ أمامي الكثير سوى أن أقررَ دائمًا: لن أفعل ما يطلبُه مني الآخرون. لا أريدُ أن يجِدوا فيّ عود الثقاب المُستعمل.

كانَ جدّاي يعيشان معنا في البيت. وهما جدّاي من ناحيةِ الأم. وفي غرفةِ نومهما صورة زفاف ابنهما معلقة فوق السرير. وهناك صورة زفاف خالي الذي لم أعرفْه إلاّ من خلالِ سماعِ الأحاديثِ عنه. كانَتْ في الصورةِ عروسٌ بنظراتٍ شاردة. على الطرحةِ تاجٌ جامٌد من الأزهارِ الشمعيةِ. لم يكن هناك إكليلٌ مضفور، وإنما إطارٌ من الأغصان البيضاء الصغيرة، التي تبدو كخيطٍ جليديّ مقوّس، وكان خالي في صورة الزفاف بوجهِه الحجريّ في بزةِ الإس إس أيضًا. كانَتْ تلكَ إجازة زواجٍ من الجبهةِ عادَ بعدَها مباشرةً إلى الحرب. ومباشرةً بعدَ الزفافِ باتَتْ زوجتُه أرملة. كانَتْ تلك صورته الأخيرة.

كانَ «متوقّدًا» قالَتْ أمي. كانَ ابنَ أغنى رجل في القرية، تاجر الحنطةِ الذي يدينُ بالفضلِ إلى عائلةِ هيرش اليهوديةِ الثرية، التي قدمَتْ له قرضًا بدون فوائد من أجل إنشاء شركته. كانَتْ علاقة عائلة جدي قويةً بآلِ هيرش فكلُّ صيفٍ كان آل هيرش، يأتون مع الأطفال للإجازة، وكان هو طفلاً. ذَهَبَ بسببِ الثراءِ الذي أصابه والده إلى «مدرسة عالية» في المدينة. وفي المدرسةِ كان معلمون نازيون من الرايخ، كانوا مبشرين بالكراهيةِ ضدَّ اليهود وهناك صارَ «متوقّداً». أصبحَ نازيًا متحمسًا،

ومعاديًا للسامية.

في القرية، في هذا المكان القفر على حافة العالم، شعرَ بأنه ممثل الفوهرر: صَعدَ فوق برميل نبيذ، وألقى الخطب محرّضًا الشبابَ بوصفه أيديولوجيًا قرويًا، ممارسًا الابتزاز والوشاية. وبسبب تلفظاته عن اليهود صفعه والده عدة مرات. غير أن ذلك لم يجد نفعًا. كان شديد المراس ومنجذبًا إلى فكرته، وأصبح خطرًا على كل من لم يذعن له بدون قيد أو شرط. قال أبوه حينها: «لقد سحره هتلر». لم يكن من الممكن التعرف عليه ثانية. تقول أمي اليوم.

في ستالينية سنوات الخمسينيات،كان يمكن للبوليس أن يأتي بلا سبب أو داع يوميًا إلى البيت، كان من المخاطرة تعليق صورة شخص من الإس إس في إطار. و ربما لأنه حتى بعد الموت أراد أن يغيّر شيئًا في ابنه، أو ربما لأنه يريد حاليًا استباق الإزعاجات فقط، أو للسببين معًا دهن الكتابة الجرمانية القديمة على الصورة بالبصاق وبأعواد الثقاب المحترقة. شرب كأسين من الشنابس قبل أن ينزع الصورة من إطارها.

لم يسبق له قط أن ثمل طوال حياته. ولكنه أراد أن يتشجع قليلاً من اجل التصحيحات التي يجريها على ابنه، أو ربّما ليحصل على بعض الموهبة لذلك. كان يضع اللون غالباً على الصورة كل بضعة أسابيع. ولكن أيضًا ربّما لأنه كان يريد الانشغال بولده، فهو لم يلمس لون ياقة البزّة الرسمية، وهي أيضًا لم يكن من الممكن مسّها بأعواد الثقاب المحترقة حتى حينما يفعل الشنابس فعله في عقله مع البصاق في هذا الأمر. ظلّ هذا العروس دائمًا في بزته العسكرية، وظّلت الكتابة الجرمانية القديمة المقرفة تنظر كعين حولاء على طرف ياقته. ولم يغلق عينيه أبدًا. وهو الآن مناسب من جديد لهذه الجملة، لهذه النكتة الفصامية: «يا له من هيكل ضخم، ويا له من محرك صغير».

الترجمة عن الألمانية: إبراهيم أبو هشهش

Zu Zeit, Herausgegeben von Florian Hoellerer und Tim Schleider, Goettingen: Wallstein Verlag, 2010.